

تجليات العنف في رواية "سيران وجه رجل متفائل" لناهد بوخالفة The manifestations of violence in the novel "Siran wajhe rajel metafail" by Nahid boukhalfa

مروك عيسى¹، جامعة الجزائر 2، (الجزائر)، aissa_marrok@yahoo.com

شيخ عبد الرزاق²، جامعة الجزائر 2، (الجزائر)، achi4821@gmail.com

تاريخ قبول المقال: 31-10-2022

تاريخ إرسال المقال: 10-08-2022

الملخص:

يرجع اهتمام الدارسين بظاهرة العنف في السنوات الأخيرة كظاهرة اجتماعية إلى تزايد حدتها، وبما أن الأدب مرآة عاكسة لبيئة الأديب وتأثرا وتأثيرا، فلا يجب أن نغفل دور الأدباء وتعاملهم معها سلبا أو إيجابا؛ وجاءت دراستنا هذه لإبراز هذه الظاهرة في الكتابة الروائية النسوية باعتبار أن المرأة من الفئات الهشة الأكثر عرضة لها، فهي عانت وتعاني من العنف القسوة من خلال الصورة النمطية التي تم قولبها فيها، ومن ثم اعتبار الرجل المعيار الأكمل الذي تقاس به سلوكياتها، ويقود ذلك إلى الشعور بالنقص والدونية والتهميش والخط من قيمتها اجتماعيا وإن تقلدت أعلى المراتب، وفي المقابل مارست عنفا رمزيا موازيا جسده من خلال ممارستها لفعل الكتابة كنوع من ردود الأفعال على ما يمارس ضدها ولطبيعة معاملة المجتمع للمرأة ككل والمبدعة بصفة خاصة، فاتخذت من أسلوب الاستهزاء والسخرية وتجاوز الأنساق الثقافية والاجتماعية الذي أنشأها الذكر المهيمن سلاحا لإعادة الاعتبار. الكلمات المفتاحية: الرواية النسوية؛ العنف الرمزي؛ النسق الثقافي.

Abstract:

Violence is a social phenomenon that specialists have been interested in in recent years after its increase in intensity. Since literature is a mirror reflective of the discipline's environment, we must not lose sight of the role of literaries and treat them negatively or positively. Our study came to highlight this phenomenon in feminist fiction writing. Women have suffered and suffer from men's cruelty and injustice through stereotyping. and to consider men as the fullest criterion by which their behaviour is measured, as well as a sense of inferiority, inferiority, marginalization and devaluation, albeit at the highest level. In

* مروك عيسى.

return, they have practised symbolic and parallel violence through their exercise of fiction as a reaction to what is practised against them and to the nature of society's treatment of women as a whole and of particular creativity. human rights ", in the manner of mockery, mockery of the other and breaking the cultural and social pattern created by the dominant male to degrade women's worth.

Key words : The Feminist Novel ؛ Symbolic Violence ؛ Cultural système.

مقدمة:

تسعى الرواية الجزائرية إلى تتبع العنف باعتبارها مرآة عاكسة للواقع الذي أصبحت تهتمين عله القسوة، وحب الذات المستلبة والمحكومة بمنطق الخداع الذي تنبأه الآخر المهيمن والمتسلط، فاتخذت منه مادة دسمة لها حتى أصبح من نافلة القول أن تفاعل عناصرها لا يحدث إلا بتأثير وتداخل من أحداث مأساوية تتبع من قلب أزمت المجتمع، ومن هذا المنطلق كان تصوير الواقع بعمق وفنية منتج لجماليات تمتح من الواقع وترقد المتن الروائي بواقعية وإقناع للمتلقى.

وبما أن العنف ظاهرة إنسانية وارتبطت بوجود الإنسان على سطح البسيطة، ولا يكاد يخلو منها مجتمع أو بلد، وقد أثارت جدلا كبيرا وواسعا بين الدارسين، حيث اختلفت حولها الآراء وتعددت بين مؤيد ومعارض، فمنهم من اعتبرها ظاهرة سلبية تلحق بالأذى بالفرد والمجتمع وتحدد من ممارسة حريته، ومنهم من عدّها ظاهرة إيجابية هدفها التصدي للعدو والقضاء على مظاهر الفساد داخل المجتمع.

ومن قوانين الطبيعة أن لكل فعل ردة فعل مساوية له أو تفوقه قوة، وهو ما يدفعنا لطرح السؤال التالي: هل يمكن أن يكون العنف فطرة متأصلة في البشر وتظهر كلما سنحت الفرصة وتوفر الظروف؟ وهل تمارس المرأة عنفا ضد الآخر؟ وإلى أي مدى يمكن أن يكون للمرأة ردود فعل عنيفة على ما يلحقها من تهمة؟ وهل يمكن لها أن تؤذي نفسها أو بنات جنسها؟ هذا ما تحاول هذه الورقة الإجابة عنه وتتبعه في ثنايا الرواية موضوع الدراسة.

المبحث الأول: في العنف:

المطلب الأول: العنف في المعاجم العربية والغربية:

من التعريفات التي جاء المعاجم العربية للعنف نجد: "العُنْفُ الخُرْقُ بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق. عُنْفَ به وعليه يَعْنُفُ عُنْفًا وَعَنَافَةً وَأَعْنَفَهُ وَعَنْفَهُ تَعْنِيفًا، وهو عَنِيفٌ إذا لم يكن رَفِيقًا في أمره. وَاَعْتَنَفَ الأمرُ: أَخَذَهُ بَعْنَفٍ. (1) فالمعني الذي يدور حول العنف هو: الخرق والتعدي وهو أيضا أخذ الشيء بالشدّة والقسوة، وإيقاع اللوم على الشخص، ومنه أيضا المعاملة بالقسوة والشدّة، واعتنف الأمر أخذه بعنف واعتنف الشيء كرهه، ويقال عنفوان الشيء أي أوله وبدايته ومنه عنفوان الشباب.

وكلمة "عنف" Violence مشتق من اللفظة اللاتينية Vis التي تدل على الاستعمال غير الشرعي للقوة، فالعنف استخدام للقوة دون سند شرعي ورفض للقانون والعدالة والخضوع لأي سيطرة " (2)، واللفظة الأجنبية violence مكونة من مقطعين: vi وهو مقطع مأخوذ من نفس الجذر المأخوذ عنه لفظ vitality أي حيوية. كما أن كلمة violence مشتقة أيضا من الكلمة اللاتينية violare التي تعني ينتهك أو يؤذي أو يغتصب. كما توجد ثمة علاقة، في اللغة اليونانية، بين bios أي حياة، واللفظة bia أي عنف. (3)

وتعرف الموسوعة العلمية " Universals " العنف بأنه ممارسة تتسم بالقوة والقسوة من طرف فرد أو جماعة ضد فرد أو أفراد آخرين سواء قولاً أو فعلاً وهو فعل عنيف يجسد القوة المادية أو المعنوية. ويعرّف قاموس راندوم هاوس (random. Hause. dictionary) العنف من خلال ثلاثة مفاهيم فرعية هي فكرة الشدة والإيذاء والقوة المادية (4). فلا فرق بين ممارسة العنف من طرف فرد أو جماعة، وكان ذلك بالفعل أو القول أو حتى الإيحاء.

المبحث الثاني: المرأة ضحية العنف:

تتعدد أنواع العنف وتتنوع مظاهره بين العنف المادي، والعنف الثقافي والعنف النفسي والعنف اللغوي، والإيديولوجي والمقدس، إلى جانب العنف الرمزي والغرض منه السيطرة على الآخر وإخضاعه بالاعتماد على قوة التأثير للتأثير في معتقدات المتلقي وتغليظه وخداعه، وتحدد بنيته من خلال "علاقات القوة بين الجماعات أو الطبقات التي تتكون منها التشكيلة الاجتماعية" (5)، وبذلك قد تظهر في الخطاب الروائي صور من العنف بمختلف أنواعه، فكيف تجلّي العنف الممارس ضد المرأة في المتن الروائي؟ وما هي الأنساق الاجتماعية والثقافية التي من خلالها برزت تلك الصور؟ وما مدى تفاعل المرأة مع واقعها خضوعاً أو رفضاً؟

المطلب الأول: المرأة بين نمطية الصورة وتحنيط المثال:

من صور العنف التي تتعرض لها المرأة في مجتمعنا تكريس صور الأنوثة المبخسة وما يخلفه من اضطراب اجتماعي ونفسي خطير، فإن كان العنف يُعرّف على أنه "السلوك الذي يهدف إلى إحداث الضرر النفسي والمادي بالإنسان أو الكائنات الحية الأخرى أو إحداث الضرر المادي بالأشياء والموضوعات" (6)، يصبح هذا الضرر واضحاً جداً حين تحنط المرأة في صورة لا يحقّ لها تجاوزها، وسلوكات لا يجب أن تتعدها. إنّه عنف أكثر رمزية وأعمق أثراً حين يرتبط بواقع المرأة بشكل كبير وبالصورة الذهنية التي تشكّلت عنها، فالتفكير النمطي (الموروث) هو السائد في مجتمعاتنا، والمرأة ذاتها _في كثير من الأحيان_ تندفع إلى تبني الصورة السلبية والتماهي معها.

وبناء على هذه التراتبية الاجتماعية يكرّس المجتمع صورة نمطية للمرأة على أنها إنسان ناقص، فهي في نظر المجتمع العربي كائن رومنسي ضعيف، لا يملك خياراً في قراراته تتأثر بعواطفها وأحاسيسها فتخاف من البوح بمشاعرها لأن المجتمع لا يسمح لها بذلك، وتعلق جلّ آمالها على الرجل فيترتب عن ذلك إهمال فكرها، وإهمال مراتبها العالية مما يؤدي إلى تشيئتها، وحال المرأة هذه لا تخرج على أن تكون انعكاساً لواقعها الاجتماعي والرمزي الخاضع لمؤثرات اجتماعية ودينية وثقافية وحتى اقتصادية ليس للمرأة دور كبير فيها، وهي الصورة التي ترسّخت حتى في ذهن النساء وتمت تغذيتهن بها على مرّ العصور، فانصاعت بعضهن لها ورضخت، في حين ثارت أخريات ضدها ووقفن ضد هذه الصورة في محاولة لتغييرها ودحضها.

فهذا الرافعي يعبر عن هذه النظرة التحقيرية بصريح العبارة قائلاً: "والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها" (7) لأن من تربي على أنه هو النموذج المحتذى والمثال الكامل، والمرأة صورة مشوهة منه وتابعة له لا كيان مستقل له كما تروج له المنظومة الإعلامية والتربوية الذكورية، يسعى إلى تثبيت هذه الصورة وإشاعها والترويج لها، بل إنها تغرس في أذهان النساء لتبقى خاضعات للإيديولوجيا المجتمعية المكرسة للمرأة التابعة، يتحكم فيهن المجتمع وطبيعة أنساقه الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية. ويمكن ردّ المصدر الأول للعنف إلى السلطة الأبوية التقليدية حسب عالم الاجتماع الانجليزي أنتوني غيدنز (Anthoni Giddens) حيث الكلمة الأولى والأخيرة للأب لأنه المعيل والمسيطر على الأسرة. فالطبيعة البدوية للمجتمع العربي كرسّت عبر قرون أعرافاً ومعتقدات أنتجت نسفاً ثقافياً تحقيراً للمرأة وأفرزت واقعا اجتماعياً يهملها ويحط من قيمتها.

وتتضافر اللغة مع ما سبق باعتبارها نتاجاً اجتماعياً لتخلق المرأة أكثر في انحياز واضح للذكر المهيمن اجتماعياً، فلا مناص للمرأة من أن تستسلم لهذه النظرة الدونية؛ مما يجعلها تستبطن الهابتوس* فيرتد العنف عليها في ذاتها (الماسوشية) (MASOCHISME) وعلى بنات جنسها الأخريات وذلك نوع من انعكاس الذات على الغير، فتأتي أجيال مؤمنة بأنها الصورة الصحيحة التي لا يخالطها شك ولا ريب، تترسخ في أذهان الرجال مكرسين التفوق الذكوري كي تبقى المرأة في وضعها المتردي، أو نساء يعدن إنتاج تقاليد متوارثة تتوالد من خلالها المنظومة المجتمعية التي تجعلهن في ذيل التراتبية الاجتماعية وهامشها.

يرسم المخيال الجماعي صورة ثابتة للمرأة لا تتغير تجرّدها من قيمتها الاجتماعية ودورها في الحياة لتستبدل بالرجل الذي يُمنح مكانة مركزية نتيجة دوره في إعالة الأسرة، وحمايتها والسهر على شؤونها، فدور التابع الذي تُحصر فيه المرأة يضرّ بها وبمكانتها الاجتماعية، مما يترتب عليه التقليل من قدرها

تجليات العنف في رواية "سيران وجه رجل متفائل" لناهد بوخالفة

وتهميشها فلا تمنح أي مسؤولية، ولا يؤخذ برأيها في القضايا المصيرية حتى وإن كانت المعنية بها، هذه هي الصورة التي نقلتها لنا أغلب كتب التراث عن المرأة، وبقيت الراسخة في أذهان الكثيرين يعاد إنتاجها في الأدب. لذلك تُشيئ المرأة وتعدّ من المتاع الزائد الذي لا قيمة له، وتُبَخس حقّها وتمتحن كرامتها، وتغمر مكانتها، وبالمقابل يحظى الرجل بكل التقدير والاحترام، فالنسق الثقافي يرسخ صورة سلبية عن المرأة وبطيل معاناتها من العنف والمعاملة التفاضلية لصالح الرجل لأن امتهان كرامتها والخط من قيمتها إلغاء لوجودها ككل. ويظهر ذلك جليا في الرواية من خلال شخصية الأم مثلا: "فتحت عيني تحت ظل امرأة وحيدة... يزورها والدي بين الفينة والأخرى، يضربها، يضرج وجهها ببزاقه ثم يغادر غرفتنا الوحيدة نحو المجهول، أحيانا كنت أحب قسوته عليها، لأنها مومس كان يثّج صدري ما يمارسه عليها من اضطهاد." (8)

فالموقف السلبي للمرأة الذي يبرر استلابها ورضوخها للآخر ليس بالضرورة ناتج عن حضور الرجل في العقل الواعي ليمارس تأثيره على المرأة، يكفي مروره في اللاوعي ليحدث تلك الهزة في ذات الأنثى ويخلط أوراقها "الشيء الذي يجعلنا مقتنعين بأنّ فعل إدراك الجسد [المؤنث] يبنّي أساسا على عملية بناء مسبقة، تعكس الصورة النمطية المترسخة في المخيال العام، كما تعكس علاقة الفرد بجسده والعالم المحيط به" (9)

وحينها تصبح سجينه هذا الرجل الذي تربط الروائية طلوع الصبح بوجهه ليزيل ظلام القلب العاشق المكلوم، لكنه رجل جرح يسبب لها الألم، فلا مناص لها منه إلا إليه، ينير دربها بشرط تحمّلها لتبعات السير في دروبه المحفوفة بالأشواك، فتتفر من المكان الذي يحطّ من قيمتها، وتبدي الرضا ظاهريا وإن سخطت: "هذا ما ينفرنني من هذا المكان اللعين، أشعر بالشفقة تجاه البنات اللاتي يتراقصن في صحن الصالة؛ الحزن باد على وجوههن مهما تظاهرن بالسعادة لإرضاء الزبائن... لا أدري لماذا اتفوه بهذا أمامك، لكنني لا أجد آذانا صاغية لتبتلع صرخاتي هذه..." (10)

إنّ الأحلام حق مشروع لكل إنسان قد أصبح في نظر المجتمع البطريركي هدية ذكورية بامتياز تتقبلها الأنثى شاكرة، فلا يكفي أن يسيطر على حياتها، بل حتى على أحلامها، وهذا العنف الرمزي تعبر عنه بشكر الرجل الذي يعيدها إليها كأنها تاهت عن ذاتها، فأصبح وحده الذي يرشدها إلى الصواب، فتكرّس بذلك اتكالها عليه وتبعيتها له. فالمرأة كجسد تملك بعض الحرية، لكنها كتفكير تابع للرجل حسبما يفرض عليها المجتمع، فترسخ لقهو المجتمع المكرس ضدها والمقنن، فيغدو أمرا عاديا ترضخ له بفرح وسرور، وتستلذ العنف الموجه ضدها. فالجسد المؤنث يستمد هويته ويكتسبها من المجتمع الذي يربط بين جسد المرأة وعقلها الموسوم بالنقص.

غرست التربية الاجتماعية في ذهن المرأة ألاّ تعترض على سلوكيات الرجل ضدها، وبثت فيها القهر والخوف، في أحضان مجتمع ينبض بكل تراكماته وازدراؤه للمرأة وهضمه لحقوقها، فلا يحق لها التصرف من تلقاء نفسها مادامت "مجرد سند هوامي لكل العقد والمآزم والتصورات والمخاوف والرغبات والإحباطات المكبوتة" (11) يعلق عليها عقده، ولأنّها محكومة بسلطة الآخر/الذكر تجد نفسها ملزمة بتبرير سلوكياتها أمامه: "تخرج من غرفتنا الوحيدة، تمسك بحقيبة يدها المهترئة، تجر خلفها عطرها القويّ ودهشتي، كان صعبا علي أن أقتنع بأنّها خرجت ليلا لتعمل، بحدس طفل مراهق كنت أشم رائحة السوء في جسدها عند عودتها في وقت متأخر... تحاول ضمّي إلى صدرها، أبتعد صارخا في وجهها الذي لم يحتفظ بمساحيق التبرج التي كانت تكسوه عند خروجها. تمنيت لو ألج يوما باب الغرفة لأجدها تنكب على العجينة تقرصها كوالدة صديقي..." (12)

تصبح في نظر ابنها قبل المجتمع متهمة؛ وإن كانت توضيحاتها لأجله، وما تفعله إرضاء له، فالأمر هنا متعلق بعبادات وتقاليد وموروث اجتماعي يحكم من خلال الولد على أمه وفق معايير سلوكية وضعها المجتمع ولا تتظر في الظروف أو الأسباب، فمن أين اكتسب الطفل/الذكر كلّ هذه السلطة، سلطة المسائلة التي تجعل المرأة منصاعة ومستسلمة؟

يعتبر المجتمع المرأة عورة ويفرض تغطيتها وسترها، لا ستر الجسد وحده بل العقل قبل ذلك، واقتراها للعشق خطيئة أزلية تستدعي استباحة دمها، ولا يحق لها التعبير عن مشاعرها والبوح بمكنوناتها، لأنّه جريمة في عرف المجتمع الذي أعطى الرجل وحده حق البوح والمصارحة والمبادرة، أمّا المرأة فتابع خاضع تتلقى الأوامر لا غير. يضع المجتمع _الذي يُعدّ فيه الرجل سيّدا_ قوانين وأعرافا وتقاليد تضمن له السيطرة والتحكم فيمن هم دونه رتبة: القويّ يمسك بتلابيب الفقير، والرجل يتحكم في حياة المرأة، والأب هو الأمر الناهي في البيت. تقاليد ترسخ لدكتاتورية بطرياقية تعتبر اضطهاد المرأة وكنتم أنفاسها هو حجر الزاوية فيه، حيث أعدت لها قائمة بما يناسبها ولا يناسب من الأفعال والأقوال التي عليها الالتزام بها.

إنها حدود ضيقة تلك التي يُسمح للمرأة التحرك ضمنها، تضيق على أحلامها وآمالها فرضتها عادات وتقاليد متوارثة في المجتمع العربي، وإن ضاقت بها المرأة وانتقدتها إلا أنها تظل تكبلها، ولا مفر لها منها. فالخطأ يغتفر للذكر مهما عظم، أما الأنثى فلا: "الغانيات لا يعدن إلى أهاليهن يا بشير... هن يدركن أن رائحة الفسق لن تغادر أجسادهن، يفضلن الموت في الخلاء على أن يلوثن جباه أهاليهن بقبلات الاعتذار..." (13)

تخشى الإقدام على الفعل وتنتظر أن يأذن لها السيد المهيمن، وتخشى التعبير عن مكنوناتها وإن كانت في موقف إفصاح فتستعير نقاط الحذف تتخفى خلفها، لأنها غير واثقة مما تصبو إليه وتريده وتخشى العواقب. فمآل الأنثى الاحتراق خلف أسوار العادات والتقاليد يحجبها السواد عن العالم (سواد التفكير الضيق، والتهم المسبقة والأحكام الجاهزة)، لأن " الواقع الاجتماعي بموروثاته المتعددة ينتهك حقوق الأفراد والجماعات لكنه منح الرجل حقوقا أكثر من المرأة، وفرض عليه التزامات أكبر مقابل إعفاء المرأة منها بعدها كائنا اجتماعيا ناقص العقل والأهلية تبعا لأعرافه وتقاليد وقيمه الدينية" (14)، ومن شأن ذلك أن يهضم حقوقها كإنسان فتتدنى قيمتها الاجتماعية وتهشم. فالتمسك بالتقاليد وعدم الخروج عنها هو ما تتربى الأنثى عليه وأي تمرد أو خروج على الأعراف (الأدب باعتباره انزياحا عن الواقع وتمردا على اللغة) يقابل باستهجان من قبل المجتمع.

لذلك ما على المرأة إلا أن ترضخ لليأس دون مقاومة أو عناد، تقضي أيامها في صمت تتقاذفها أمواج قيم اجتماعية بالية لا تقيم لها كإنسان أي اعتبار أو وزن، ولا تعبأ بمشاعرها وأحاسيسها ولا بطموحها وآمالها. فصورة المرأة المستلبة والمستسلمة تبدو جلية من خلال الذين الصورة النمطية للمرأة، وضوابط الحياة الاجتماعية التي لا يمكن للأنثى أن تتمرد عليها.

فالمجتمع يمنح للأفراد استعدادات معينة ويهيئهم للقيام بأدوار محددة، وتختلف المؤهلات التي تمنح لكل فرد، وتتمايز أكثر بين الجنسين. ذلك أن الذكور أكثر حظا لتناسب ما يُمنحون من مؤهلات مع أدوارهم الاجتماعية المركزية التي تمكنهم من بسط هيمنتهم ونفوذهم على المجتمع، عكس النساء اللواتي لا تمنح لهن إلا أدوارا ثانوية، وتهيئ للعب أدوار هامشية تجعلهن في أسفل المراتب الاجتماعية؛ مما يجعلهن ومحتقرات لا يرتجى منهن نفعاً. وهي الصورة السوداوية التي ترسها الساردة للمرأة من خلال وصف حالة اليأس التي تعاني منها المرأة نتيجة وضع اجتماعي يصنفها كفرد ناقص لا يمتلك أية فعالية، وصورة المرأة ناقصة العقل أكثر شيوعاً في مجتمعات تفرض التبعية للرجل على المرأة وتملكه زمام أمرها، لا تعرف إلا به: زوجة أو أختاً أو أما وليس لها كيان مستقل. "ذات مساء جاءتني سعيدة باكية شاكية منه، حين كسر مذياعها متحججا بأن الغناء حرام، وأنه لن يتوسط لها عند جارتنا الذي يذهب للمدينة كل أسبوع ليقتني لها البطاريات... يخبرني دائما أن الأنثى بالون هشة جدرانها، وأنه علينا الحرص عليه وإلا انفجر وأحدث جلبة... كان طيباً معي وقاسياً على أخته، يحرص ألا تخلع وشاحها حتى داخل الكوخ، فهو يحرم على نفسه رؤيتها بلا حائل يمنع عنه ما يثبت أنوثتها حتى شعرها المجعد لم يسلم من الحجب..." (15)

تنشأ الفتاة على نكران الذات وتجاهلها رغم ما في ذلك من أذى نفسي، ويحصر دورها في خدمة الآخر والقيام على شؤونهِ وإسعاده (أبا وأخا ثم زوجا)، فتتعايش مع ما يحيق بها من ظلم يجردها من اهتمامها بنفسها كإنسان له نفس الحقوق، فتستلم لواقعها تحت طائل الشرعية الذكورية. ومن مظاهر هذا العنف المسلط عليها وتحكم الرجل في مصيرها، وعزوفها عن ممارسة حقها في إبداء الرأي وإن تعلق الأمر بحياتها الخاصة، ترهن نفسها للآخر يتصرف فيها كيفما شاء، فالمركزية البطريركية (Patriarcal) المتمثلة في هيمنة الأب تحجم دور الأم، وتسجنها في البيت بلا حول ولا قوة، بل لا تتوانى عن حجب عقلها وإلغائه بدعوى قصورها. هذه هي الصورة النمطية التي لا يفتأ المجتمع الذكوري تحنيط المرأة فيها محاولا تكريسها بشتى الطرق، والحفاظ عليها عبر عقود من خلال السيطرة على المنظومتين التربوية والإعلامية التي تضمن سلطته وهيمنته الأبدية.

المطلب الثاني: الجسد والتمييز الجنسي

يرى فرويد أن "عقدة الخصاء" سبب النظرة النفسية المشوهة للأنثى فيمارس على جسدها عنفا ماديا ورمزيا من خلال فكرة الجسد الأنثوي (العييب) التي تنشأ نتيجة عدد من العوامل التربوية والنفسية التي تحيط بتنشئة البنت، وتلعب العادات والتقاليد دورا مهما في هذه التنشئة من خلال الأفكار والطابوهات التي تغذي عقول الناشئة. وعلى العكس من ذلك نجد الطفل يعامل معاملة أكثر تحررا وأقل قيودا من البنت، وتمنح له العادات الاجتماعية هامشا من الحصانة التي ترفع من مكانته وتجعله فوق القوانين، فلا يواخذ على أخطائه؛ عكس البنت التي تدفع ثمن ما تقترف، وأحيانا ما يُقترف ضدها من طرف الذكر فتحمل أوزاره وإن كانت ضحية، لذلك "أصبحت كتابة الجسد مرتبطة أشد الارتباط بالخرق السوسيو - ثقافي للمجتمع الذي أرسى خطابا نمطيا لجسد الأنثى" (16)، خطاب تماهت معه الساردة وأعدت إنتاج النظرة المجتمعية.

حوّل النسق الثقافي جسد المرأة من مصدر قوة لها لما يملكه من طاقات تميزها عن الذكر إلى نقطة ضعف تخجل منه باعتباره عورة تُضطهد من أجله ويسببه، فالجسد الأنثوي أيقونة لها حدان أحدهما سلاح يسند تمايزها عن الآخر، غير أن التكوين الاجتماعي حيده وأسهم في إبراز الجانب الأضعف فيه، ذلك أنّ "التراث الفكري والثقافي العربي خضع لنسق ثقافي مضمر، تولى صياغة الرأي وتوجيه الموقف من المرأة. وقد تمثلت أبرز الغايات التي وجهت البحث في الكشف عن مظاهر تحيز الثقافة العربية ضد

المرأة، وتحديد الآليات التي اعتمدها النسق التراثي من أجل تبرير وتسويق النظرة المحافظة والمنتقصة من المرأة جسدا وخطابا" (17)

فالصورة النمطية للمرأة العاجزة والقاصر جعلها تقبع تحت تصرف الرجل وملكيته جسدا وفكرا، فهي لا تمتلك الحق في التصرف في جسدها المملوك لآخر رغما عنها بحكم العرف والتقاليد لأنها ليست كيانا مستقلا يملك خصوصيته، في المقابل نجد هالة من القدسية تحيط بجسد الرجل وتبجله لا يحق لأي كان أن يمتلك هذا الجسد أو يتصرف فيه وله كينونته الخاصة واستقلاليتها، فأنشأ خطابا يركز "تركيزا واضحا على جسد المرأة في جانبه الشبقي، باعتباره موضع الفتنة والاستهتام؛ وكأن هذا الملمح هو الأصل في المرأة. أما العقل، فعارض وثنائي" (18) ومن هنا جاء التركيز على الجانب البيولوجي للمرأة، وإهمال حضورها الاجتماعي وتقزيم عقلها وفكرها، هذا التصور الذي ربطها في المخيال الجمعي بمصدر الشر والخطيئة الأولى، "فقد عملت الثقافة معززة بنصوص مقدسة من أجل إحكام السيطرة عليها، لا سيما على جسدها، وغلق الأبواب دونها ... درءاً للفتنة التي يمكن أن يسببها الجسد" (19) ففي العرف السائد تعتبر المرأة مصدر الفتنة، وخطر محقق بالرجل ما لم تُقمع، بل إنها سبب خروج آدم من الجنة شقائه إلى يوم القيامة، لذلك تحمل كثير من المعتقدات الدينية تحذيرا صريحا من فتنة النساء على الرجال. وهو ما نجده في الرواية الجزائرية النسوية المعاصرة إما موافقة وتأكيذا على هذه النظرة التي تجرم المرأة بحكم ما تراكم في ثقافة المجتمع خضوعها للعرف السائد، أو ثورة ورفضاً في أحيان كثيرة لما تعتقده الروائية وما تشعر به من ظلم ونفي لوجودها الإنساني من خلال هيمنة السلطة الذكورية على الحياة عموماً والثقافة خصوصا، وهي نزعة تكرر تفوق الرجل بيولوجيا وبالتالي اجتماعيا وثقافيا.

لا قيمة للجسد إذا ما ألغي العقل، لكن احتفاظه بباقي الأجزاء يجعل منه أداة تقوم بوظيفتها الاجتماعية المتمثلة في تحقيق منافع الرجل وغايته من إمتاع وخدمة وغيرها، هذا الجسد يسمح للمرأة بالإغراء والحضور المادي، فتتجمل لتحقيق رغبات الرجل، وفي غياب العقل يصبح طيحا وتابعا لا يملك قوة الرفض بل تستمتع بالسجن الذي أحاطتها به العادات والتقاليد وسيجتها. فوظفت الساردة تمثال النجمة الساطعة كرمز لهذه الحالة وأسقطتها على النسوة ككل: "أجسادهن المترامية في كامل أركان الصالة... كنّ دافئات كفصل الصيف لكن بحدس شاب شقيّ بئس أحسست أنهمّ يعيشون شتاء طويلا بداخلهنّ. قلوبهن بردت منذ أول وهلة فقدن فيها عفافهن، لكن من سيهتم... كلّ ما سيكثرث له الزيون هو أن تمنحه ما يشاء ليشبع غريزته..."²⁰

وبين المتعة الحسية والروح بون شاسع ومسافة من القهر والحرمان الذي تعيشه المرأة في المجتمع الشرقي الذي يهمل رغباتها ولا يقيم لها وزنا، ينتزع منها إنسانيتها للتحوّل إلى تسلية ومتعة. فالجسد نعمة

تجليات العنف في رواية "سيران وجه رجل متفائل" لناهد بوخالفه

للمرأة ونقمة، يحقق ذاتها لكنه يقصي عقلها فتضيع بينهما، جسد يخون صاحبتة لأنه يجردها من التفكير فتستحيل دمية بيد الذكر، تكبلها ترسانة القوانين النازمة للحياة الاجتماعية ملغية وجودها من خلال تعقيب العقل لأن استعماله يذهب جمال المرأة وهو ما يتنافى مع الوظيفة المنوطة بها اجتماعيا. ولا يجدي ساعتهما الاحتجاج والرفض لأنه حكم المتسلط وقوانين المجتمع المنحاز للآخر، مما يحتم عليها الخضوع والاستكانة له وأداء الدور بإجادة ومهارة. دور أعدت منذ نعومة أظافرها بتلقينها أبجدية الخضوع والاستسلام للآخر/الذكر.

ومادامت أنثى فلا يسعها تمزيق الشرنقة والتحرر من قيودها وما عليها إلا الاستسلام للخرافات التي نسجت حولها وأن تجلس للعرافة تقرأ كفها وتثبت أغلال المجتمع حول معصمها وتتصاع للتقاليد، ترضى بما يخبئه لها الغيب الذي رسم خطواتها فلا يحق لها التفكير واتخاذ القرار، وعليها أن تبقى زوابعها وثوراتها في داخلها ولا تصرّح بها، فتموت كل يوم ألف مرة.

المطلب الثالث: التهميش والشعور بالنقص والدونية:

تتضافر عدد من المؤثرات الاجتماعية والنفسية لإشاعة الإحباط وبت عدم الثقة في نفس المرأة والخط من قيمتها في مقابل الرفع من قيمة الرجل، فينشأ الشعور بالنقص والإحساس بالدونية وامتهان الذات، وتعتقد أن الصفات السلبية ولدت معها، عكس الرجل الذي يعتبر المهيمن والمسيطر والمالك للقوة والقوامة، فينطبع في لا شعور كل منهما هذه الصورة، ويتلخص هذا من خلال "شعور ممض ومثير للذعر بانعدام القيمة، بهدر الإنسانية، بإحساس بالاختناق نظرا لاستحالة التعبير عن الذات وتوكيدها من خلال صرخة احتجاج أو نداء. تثير هذه الصورة جرحا نرجسيا جذريا. كما أنها تقجر على صعيد آخر عقدة خصاء شديدة. إنها صورة الإنسان العاجز عن أن يكون في دخيلة نفسه، رغم ما يتوسله من أقنعة وأدوات تمويه، يغطي بها عريه الوجودي. حتى الحرمان المادي، والغبن الاجتماعي يُعاشان تحت شعار انعدام القيمة"⁽²¹⁾ و بذلك يكون شعور المرأة بالعجز والدونية نتيجة الدوافع النفسية التي يبعثها الشعور بالنقص، تشعر أنها أقل قيمة مما يُعرضها للإصابة بأمراض نفسية كالعزلة والإحباط، أو حبّ الإطراء والتكبر، والشعور بالعجز والنقص يدفعها للعنف المادي كإيذاء غيرها أو العنف المعنوي كالحسد ونشر الشائعات، كما ينتابها الشعور بالاضطهاد. فالنساء من الفئات الهشة المعرضة للتهميش والإقصاء والنبد المجتمعي فلا تجد بدا من الاحتماء بالرجل والرضوخ لهيمنته.

وتتعاظم حدة الشعور بالاحتقار والدونية من خلال المقارنة بالرجل الذي لا يقف شيء في طريقه لما يمتلكه من قوة وسيطرة مادية ومعنوية وما يضع يده عليه من وسائل، ولأن النسق الثقافي والاجتماعي فرضا عليها الرضا بالعجز والحاجة لوصاية الذكر المهيمن، فقدت الثقة في نفسها ومن ثم في محيطها

ومجتمعها، واستسلمت للهامش في واقع كل شيء فيه يعاديه، فلا تستطيع فكاً من برائن عجزها المصطنع. وهو ما ترجمته الساردة على لسان سامية المرأة المغتربة: "بشير، هل أخبرك بأن قذري ساقك لتتبعني! عشت أعواماً أبحث عني في كنف رجل لا يعرف كيف يعامل النساء، يذري أمواله ليخرس عوزي إلى نظرة شغف في عينيه كالتّي رأيتها في عينيك... لطالما عشت فقيرة للحب في قلبه، وعاش هارباً من نظرات اللّوم في عيني... ثم رحل بعقله وقلبه حيث لا أدري! بقي فقط جسده يثبت وجوده للعامة، لكنني أدري الناس برحيله..."²²

تتعرض المرأة نتيجة للمنظومة المجتمعية إلى التهميش والإقصاء من خلال التشكيك في قدراتها خاصة العقلية وعدم أهليتها لتولي مناصب أو القيام بأعمال معينة؛ مما ينتج عنه الاستبعاد الاجتماعي كما يسميه محمد الجوهري "الذي هو نقيض الاندماج والاستيعاب، موضوع حيوي وكاشف لحقيقة البنية الاجتماعية في أي مجتمع، فالاستبعاد ليس أمراً شخصياً، ولا راجعاً إلى تدني القدرات الفردية فقط بقدر ما هو حصاد بنية اجتماعية ورؤى محددة ومؤشر على أداء هذه البنية لوظائفها، وليس موقفاً سياسياً فقط ولا طبقياً، ولكنه نتاج كل ذلك"⁽²³⁾، ومردّ ذلك للاعتقاد السائد أن المرأة لم تُخلق لتفكر، وأن أحاسيسها وعواطفها تغطي عليها.

وإذا كان التهميش يعني وضع الأشخاص أو الجماعات على هامش الأحداث ويقصد به أيضاً الإقصاء أو الاستثناء أو عدم الشمول، فإنه في بعض معانيه يقصد به عدم قدرة المجتمع على تفعيل بعض أفراد أو فئات منه كي يحققوا ذاتهم، وبالتالي تعطيل قدراتهم ومواهبهم وطاقاتهم أي استبعادهم اجتماعياً، والفئة الأكثر عرضة للتهميش هي النساء في شتى مواقعهن بدءاً من الأسرة التي تقدّم الولد على البنت، وتتم تربيتها على الرضا بدونيتها وعدم امتلاك زمام أمرها؛ حيث مارست المركزية الذكورية "الهيمنة والتخويف والإقصاء للمختلفين أو المهمشين، فهي تقدّم نفسها باعتبارها الثقافة الشرعية لتؤسس ذاتها في مجرى التاريخ، وتقضي على آمال الآخرين بالصعود والتقدم فلا تمنحهم فرصة أو مقدرة للتعبير عن ذاتهم... وجعلهم عالة على الكبار الأقوياء والمراكز؛ لتفريغ فائض القوة، وتسويغ وجودهم الاجتماعي بالعطف والشفقة والإحسان على الكائنات المهمشة"⁽²⁴⁾، هذه المعاملة الدونية والمحقرة للآخر التي عانت منها المرأة بوصفها هامشاً والذكر مركزاً مهيمناً ولدت عنفاً نفسياً بالغ الأثر يظهر أثره في كتاباتها، ذلك أنّ التهميش "أشد وأعنف من الاعتداء الجسدي (الإهمال، البرودة في المعاملة، اللامبالاة، النفاق والخداع، العنف اللفظي...) إنها أشكال وأساليب عديدة من المعاملة الهدامة"⁽²⁵⁾ التي تحط من قيمتها كإنسان، فنُظهِر ما يلحقها في أشكال فنية منها الرواية، لذا نجد الرواية محل الدراسة قد نقلت معاناة المرأة من هجر وتجاهل وقهر واستلاب ولا مبالاة وكل أشكال العنف الأخرى في خطوة لرفض هذه

الممارسات في حقها، لا لعجزها أو تخلفها الفكري - كما تروج المنظومتان الثقافية والاجتماعية - وإنما للأنساق المهيمنة حفاظا على المكانة والسلطة، فالتمرد يكون "نتيجة لممارسات تمييزية أو فرز اجتماعي يستبعد الآخر ويبخس اختلافه وينفي عنه أية قيمة، لأنه غير متماثل مع المركز" (26)، وتتمظهر هذه السلوكات الإقصائية في الهجر والتهميش والقمع والاستلاب .

"مشكلتي زوجي أيضا، توقعت أن يكون ملاكا معي، إني متكلفة في الحب... يريدني بسيطة، يكره المرأة المتميزة، التي تعرف في أي المقامات يجب أن تكون، وهو رجل عشوائي يجوع في أي وقت، يضاجعني مهما كان مزاجي، لا يهتم للون جواربه وربطة عنقه، لا يشمّ عطر الورود إن صادفته. رجل أبسط من أن يسعد امرأة مثلي، قلبه مليء بحبه لأطباق والدته، يهتم أكثر لسندات شركته الكبيرة، يفهم احتياجات سيارته ولا يفهمني واحتياجاتي [...] يا بشير أنا وحيدة، مجوفة جدا..." (27) وهي بذلك تعامل كأي شيء مادي يمتلكه الرجل ولا يحق لها الاعتراض أو الرفض، وسلبت المرأة ثققتها بنفسها ودفع بها إلى أسفل المراتب الاجتماعية دونما وجه حق لتكون تابعة لا فاعلة.

فما هي في نظر المجتمع إلا غلاف لكتاب كتبه غيرها وخطّ أحرفه أو شاهد قبر مؤجلة أحلامه، فالموت يترصد الأنثى (موت الأحلام و والآمال) وهو موت معنوي أشد وأنكى وقعا عليها، فيكون استسلامها لقدرها المحتوم إقرارا ضمنيا بدونيتها والمكانة التي فرضها عليها مجتمعها، ولا تملك إلا الرضوخ والركون للأمر الواقع. إنّ هذا الشعور يدفعها إلى حالة نفسية كارثية ينفطر لها قلبها. كما تتجلى حالة الشعور بالدونية أكثر حين تفقد المرأة وجهتها وتقف عند باب الرجل تستجدي ملاذا وبوصلة تعينها على إدراك ذاتها وفهم كنهها. لذلك لا عجب إن أظلمت الدنيا في وجه الأنثى وفرت أحلامها فتغدو أيامها صحراء قاحلة، وما من نور يضيء دربها، فالواقع يعاديها ويصادر قراراتها ويهزّ ثققتها بنفسها ويدفعها إلى هجر آمالها وأحلامها وذلك أقسى أنواع العنف وأقصاها.

المبحث الثالث: العنف المضاد/ من الضحية إلى الجلال

المرأة جزء من هذا الكيان الاجتماعي يلحقها ما يلحقه، بل هي أكثر عرضة للعنف والتهميش لأنها تنتمي إلى الفئات الهشة والمهمشة، وهو ما يولد بالمقابل لديها عنفا موازيا نتيجة التنشئة الاجتماعية والعوامل النفسية وبعضه يعود إلى اللغة في حدّ ذاتها وما تفرضه من تراكيب عنفية مختلفة، ولا يخفى ما في الطبيعة البشرية من ميل إلى استخدام القوة والعنف، فيرتدّ أحيانا عليها وعلى بنات جنسها في صورة انعكاس الذات على الآخرين، وكثيرا ما يكون عنفها على الآخر ردّة فعل على عنف لحقها أو متولد عن تجارب عنيفة سابقة، أو ينشأ عن انقلاب جنسي أحيانا أو أدبيية، ومتأثرا بدور الأم في صقل البنت أحيانا كثيرة.

فيكون عنفها **ضد** الآخر من منطلق الرفض وكسر القيد الاجتماعي، وما يحمله من رواسب نفسية، كما قد يكون عنفها **على** الآخر ناتج عن حب التملك والسيطرة وجريمة الشغف، وهي حالة قد لا تتعارض مع الطبيعة البشرية في الحالات العادية لكنها تتعاظم لتصبح أقرب إلى النرجسية. لذلك نجد أن الكثير من النساء لم يستسلمن للقهَر المسلط عليهن وما مورس عليهن من عنف، بل رفضن ذلك وثرن للمطالبة بحقوقهن المهضومة، وأبدین ردّة فعل عنيف في أغلب الأحيان أقوى من العنف الذي تعرضن له، ونختصره في مظهرين من المظاهر العديدة:

المطلب الأول: تضخم الأنا:

من الأفعنة التي تتقنع بها الأنا لتثبت ذاتها وتفوقها وتتجاوز عقد النقص تضخم الأنا، فتتخذ التقليل من الآخر والخط من قيمته من جهة، والإعلاء من شأنها والرفع من قدرها، ولو بالتغني بمنجزات وهمية تشعرهن بالتقدير في محاولة لتلبية رغبات الذات المحرومة، واستصغار الرجل وازدراءه، وهي ثقة موهومة تجعلها تتوقع حول ذاتها وتلغي وجود الآخر وتفوقه، وما ذلك إلا ردة فعل لما حاق بها من العنف طيلة عقود من الزمن، ومن صور تضخم الأنا وإيذاء الذات لجوؤها إلى التعبير عن كل ما لحقها من إحباط وتهميش بلغة تميل إلى توظيف مفردات وتراكيب لها حمولات دلالية عنفية تبرز استفحال نسق العنف في الاستعمال اللغوي.

فالتضخم الأنثوي يصدر بداية كموقف دفاعي ضد العنف الممارس عليها ثم يتحول من مجرد دفاع عن الوجود الأنثوي إلى فرض الوجود الأنثوي بصورة الهيمنة الندية، وما تفتأ تتضخم الأنا حتى تصبح طاووسية قبل أن تتحول إلى سوداوية بعودة الآثار الدفينة للعنف تتمظهر في ممارسة شعرية استعراضية لأنوثة مضخمة، ثم يرتد هذا التضخم الاحتقاني على الذات المؤنثة نتيجة الجرعات العاطفية غير المتوازنة وينقلب فيه السحر على الساحر. يكشف علم النفس عن عدة صور لإيذاء الذات من حيث تريد نفعها، فقص المرأة لشعرها أحيانا هو قطع لعضو في الحقيقة وهو صورة من العقاب للذات (28)

وينعكس ذلك على الممارسات الأدبية مما يولد صوراً فنية مريكة تصف الحالة النفسية للأنثى في عالم يرشح عنفاً ضدها، ويُسكت صوتها ويمارس الرقابة على حركاتها وسكناتها، فتأتي النصوص محملة بحمولات دلالية تصف اضطراباتها وعواصفها وثوراتها وغضبها عوض أن تصف أنوثة ناضجة تعيد تشكيل العالم وفق رؤية خاصة، فيكون في نظر الروائية ذلك التضخيم الهوائي الاستعراضي تنفيس وتعويض عما لحق الأنثى وهو أمر صحي في جانب منه، لكنه يصبح غير ذلك عند خروجه عن الأطر، وهذا ما يفسر كثرة الأنا في الكتابة النسوية كرد فعل على التشكيك الدائم الذي كان يحيط بها (29)، وقد آن الأوان لتحتل المكانة التي تستحقها وتصبح مركز المجتمع والفاعل فيه لا مفعولا به

مثلما ضلّت لروح من الزمن، فأيمانها بقدراتها وكفائها يجعلها تواجه المجهول دون خوف. وهو ما تجسده الروائية في نموذج سهيلة مسيرة الملهى التي تتجلى قيمتها عند رحيلها، فينهّد الملهى على رأس صاحبه: "عدت إلى عملي، افتقدت الفراشة، كانت نشطة مجتهدة، غيابها سيكسر ظهر عمي باديس لا محالة، الفتاة كانت ذراعه الأيمن، ولها كلمة مسموعة في المكان، هي الوحيدة القادرة على السيطرة على فوضى البنات وإخضاعهن... ستمر أوقات عصيبة على الصالة ومن فيها..."³⁰ سهيلة (الفراشة) وجدت في نفسها القدرة على إثبات ذاتها، والتحكم في نقطة ضعفها التي وصمت بها طويلا وهي طغيان المشاعر، لقد استسلمت لمشاعر الرحمة والعطف والحنان فكان أن امتهنت كرامتها وديست حقوقها، فماذا لو أعادت جدولة مشاعرها واحتقت بمشاعر الغضب والحقد والانتقام؟

المطلب الثاني: الاستهزاء والازدراء:

تستمد اللغة سحرها من قدرتها على استحضار الألم من خلال العنف اللغوي. لأنها جزء من النظام الاجتماعي لذلك يعتبر الاستخفاف والإذلال والإهانة والسخرية انفعالات تُترجم بواسطة اللغة وتنشئ تصورا عن الآخر المغاير، ويتحدد من خلالها علاقتنا به. فاللغة بألفاظها وتعبيرها المنتقاة تعبر عن وجهة نظر ذات بعد أخلاقي وسلوكي لفرد أو جماعة معينة تجاه جماعة بشرية أخرى.

ونجد الروائية/الأنثى تعتمد إلى السخرية واستقزاز الآخر من خلال اختيار ألفاظ وتعبير محددة في ردّ فعل عن رفض التهميش والاستصغار الذي تشعر به، فلا تتوانى في اعتبار هجره لها هروبا وجبنا وعدم تحمل للمسؤولية، مستغلة ما تمنحه لها اللغة من قدرة على إحداث مغالطات منطقية تقلب الوقائع وتزييفها من أجل الهيمنة على الآخر والسيطرة عليه والتأثير في قراراته. لذا تلجأ الساردة إلى الاستخفاف والاستهزاء بالحبيب الغادر والخائن كرد فعل عما لحقها من أذى، وتلجأ إلى معجم دلالي ينهل من حقول عنفية صرفة، فحين يلحقه الألم عليه أن ينتبه إلى ما ألحقه من آلام بغيره، فيتواضع ويتعلم كيف يعامل الأنثى. قد تكون الخشونة والعنف والقسوة صفات ذكورية بامتياز تلازم حياة الرجل في الغالب حتى في أرق أوجهها وهي الحب والرومنسية، وحين تركز الساردة على تلك الصفات من باب التعريض بالحبيب العاشق الولهان الذي يتمادى في الأذية والعنف، فذلك قمة الاستخفاف بمشاعره والاستهزاء بأحاسيسه، فالطبع يغلب التطبع، وما نشأ عليه من تربية في بيئة اجتماعية لم يكن ليختارها تصبغ تصرفاته وإن حاول تجميلها. وقد اختارت الساردة نموذج الرجل العاجز -والعجز ضربة قاصمة لكل رجل- لتمن في سخريتها من مجتمع يجرم المومس وإن كانت في صورة والدته ثم يقف عاجزا في أول امتحان له:

"قامت غاضبة وأمرتني بالمغادرة الغرفة متممة:

-أحمق عاجز..."³¹

وبين التنشئة الاجتماعية والتماذي في القسوة بون شاسع، فحين يمعن في مقت أمه يكون قد تجرد من إنسانيته وتخلّى عن مشاعره، وذلك ما بيّين أنها لم تكن إلا زوبعة مشاعر وفورة أحاسيس غير صادقة بالمرّة، وإلا ما نفّض يده منها بسهولة، إن الساردة حين تطعن في فحولته وتمعن في إذلاله حين تقرر أنه غير صالح للحب. إنه حليف الأموات وحبيس الماضي وحارس العادات والتقاليد البالية، يأبى أن يعيش حياته مع من تحبه وتخاف عليه وترعاه فتتسع بينهما المسافة، وحتى المشاعر الجياشة يحاول سترها حتى لا ينفّض أمره، عكس والدته التي كلما أطبق الحصار عليها تألّقت وأبدعت، هذا الفرق بين الأنثى الحساسة والذكر المتلبّد الأحاسيس في نظرها. فاستحضار الساردة للمرأة "وهي الأداة التي تتعرف فيها الأنا إلى ذاتها. وهي المرحلة التي يطلق عليها جاك لاكان بمرحلة المرأة الذي يدرك فيها الطفل لأول مرة أنها" (32) وكأنها بذلك تعيد تشكيل شخصيتها بعيدا عنه وعن المفاهيم التي تشربها من ثقافة ظلمتها. تمارس الساردة عنفا مضادا على الرجل من خلال التشكيك في قدرته على مقاومة إغرائها والتحكم في عواطفه اتجاهها مستخدمة اللغة بما تتيحه من تعابير عنيفة ناشئة عن توظيف أسلوب التهريب والترغيب أو السخرية لتَهْزَأ وتستهفّ به، ما يدفعه للارتباك وعدم الثقة في النفس "عندما يشعر بالإفلاس في الموقف وهذا بدوره يؤدي إلى سلوك غير متوازن وغير مقبول" (33)، فينصاع مرغما إلى رغباتها في سعيه لتفسير سلوكه، أو تكشف رعونته من خلال ردود الأفعال التي قد يقوم بها نتيجة ضعفه وقلة حيلته.

الخاتمة:

يعد تصنيف المرأة من الفئات الأكثر هشاشة مدعاة لتعرضها لأصناف العنف والأذى المادي والمعنوي عبر العصور والمجتمعات، وامتلاك المركزية الذكورية المهيمنة أسباب القوة دفعت إلى امتحان كرامة المرأة، كل ذلك جعل النساء يرفض هذا الحيف ويصرخن في وجه العنف المسلط على رقابهن بكل الطرق الممكنة، وكان الأدب في مقدمة هذه الوسائل، فأنجبت الروايات نصوصا مشحونة بالعنف، قمن بانتقاد الظواهر التي تفرّقهن واصفات ما تعانيه المرأة من ظلم وعنف وحرمان، كما انتقدن العادات والتقاليد التي تسجنهن وتحول بينهن وبين حريتهن، كل ذلك في محاولة لتجاوز اللغة المنحازة للذكر المهيمن والثورة على النسق الاجتماعي ورفضه لما فيه من حظّ لقيمة المرأة، ولأن السيطرة على الذات يتم بواسطة إحكام السيطرة على الجسد وترويضه كانت المفاضلة بينها وبين الذكر من خلال إحكام السيطرة على أجسادهن، لأن إرضاخ الجسد يتبعه الهيمنة على الذات ويهملها ويقصّيها من الحياة على هذا الأساس، ونتيجة لهذا الواقع المنبني على تراتبية غير عادلة ظهر رد فعلهن بشكل عنيف كان الرجل ضحيته لما يمثله من واجهة للمنظومة الاجتماعية، فأصبح الرجل عرضة لسهامهن المتمثلة في السخرية

تجليات العنف في رواية "سيران وجه رجل متفائل" لناهد بوخالفة

والازدراء والإغراء والإذلال، كما كان سعيهن لكسر النسق الاجتماعي وتجاوز الأنساق القائمة، ولم توقف الأمر عند هذا الحد بل انقلب السحر على الساحر، فارتد العنف على الذات المؤنثة المبدعة في صورة تضخم الأنثى والنرجسية وإيذاء الذات لأجل لفت الانتباه ورفض الواقع المهيمن الذي عاشت فيه. ورغم كل ذلك فإن الساردة لم توفق في طرح الموضوع من وجهة نظر أنثوية بل استجابات للاشتراطات والتواضعات المسبقة متغافلة عن الآثار النفسية التي تعيشها الأنثى موضع الاتهام في مجتمع ينخره الفساد، واكتفت بتوصيف واقع الحال مما يعيدنا للمربع الأول من الحركة النسوية، مرحلة الكتابة المؤنثة (Féminine)، التي خضعت فيها المرأة للسائد من الأشكال الأدبية والموضوعات التي تطرق لها الكتاب الرجال؛ ولم تبلغ مرحلة الكتابة الأنثوية (Femelle) التي لم تكتف المرأة فيها بالمساواة مع الرجل، بل سعت للاستقلال بكيانها، وهو ما قاد حسبهن دائماً إلى ضرورة القيام بثورة أدبية تعبر فيها المرأة عن ذاتها وإعادة اكتشافها؛ مما يشكل لها هوية مستقلة تعيد من خلالها تشكيل العالم وفق رؤاها الخاصة ونظرتها للمستقبل الذي تريده.

الهوامش والإحالات:

- (1) جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999، الجزء التاسع، ص 424/423
- (2) أحمد أوزي، سيكولوجية العنف (عنف المؤسسة ومأسسة العنف)، منشورات مجلة التربية، المغرب، ط1، 2014، ص 11
- (3) مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص477
- (4) علي بركات، العوامل الاجتماعية للعنف المدرسي (دراسة ميدانية في مدينة دمشق)، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، 2011، ص29
- (5) بيبير بورديو، العنف الرمزي، ترجمة نضير جاهل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص10
- (6) المرجع نفسه، ص21
- (7) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، 2002، المجلد 1، ص130
- (8) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، منشورات بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص74
- (9) عبد النور إدريس، التمثلات الثقافية للجسد الأنثوي، سلسلة دفاتر الاختلاف، مكناس، المغرب، ط1، 2015، ص6
- (10) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، ص90
- (11) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان، ص200
- (12) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، ص11
- (13) المصدر نفسه، ص109
- (14) صاحب الربيعي، المرأة والموروث في المجتمعات العيب، ص20
- (15) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، ص124
- (16) عبد النور إدريس، التمثلات الثقافية للجسد الأنثوي، ص6

تجليات العنف في رواية "سيران وجه رجل متفائل" لناهد بوخالفة

- 17) مصطفى الغرافي، المرأة ونظام الثقافة: هيمنة الذكورة مجلة ذوات، المغرب، العدد 15 أكتوبر 2015، ص 77
- 18) المرجع نفسه، ص 78
- 19) إلهام البوزيدي، الأنثى/المرأة بين أسر اللغة والثقافة، مجلة ذوات، العدد 9، 2015، ص 38
- 20) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، ص 92
- 21) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط9، 2015، ص 196
- 22) ناهد بوخالفة، سيران وده رجل متفائل، ص 101/102
- 23) نقلا عن هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب - قراءة سيكولوجية، دار رؤية للنشر والتوزيع بالقاهرة، مصر، 2015، ص 46
- 24) المرجع نفسه، ص 9
- 25) أحمد أوزي، سيكولوجية العنف، ص 46
- 26) هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب، ص 33
- 27) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، ص 116/117
- 28) ينظر: نوال السعداوي، مذكرات طبية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، 1985، ص 15
- 29) رشيدة بنمسعود، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، أفريقيا الشرق، المغرب، ط 2، 2002، ص 94
- 30) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، ص 112
- 31) المصدر نفسه، ص 95
- 32) أحمد يوسف، يتم النص الجينولوجيا الضائعة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2002، ص 125
- 33) ليليا الجويني، الرجولة المستقرّة في الكتابات النسائية، دار سحر للنشر، تونس، 2016، ص 31

قائمة المصادر والمراجع:

- 1) أحمد أوزي، سيكولوجية العنف (عنف المؤسسة ومأسسة العنف)، منشورات مجلة التربية، المغرب، ط 1، 2014.
- 2) أحمد يوسف، يتم النص الجينولوجيا الضائعة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2002.
- 3) بيبير بورديو، العنف الرمزي، ترجمة نصير جاهر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1994.
- 4) جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1999، الجزء التاسع.
- 5) رشيدة بنمسعود، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، أفريقيا الشرق، المغرب، ط 2، 2002.

- 6) صاحب الربيعي، المرأة والموروث في المجتمعات (العيب)، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق 1، 2010.
- 7) عبد النور إدريس، التمثلات الثقافية للجسد الأنثوي، سلسلة دفاتر الاختلاف، مكناس، المغرب، ط1، 2015.
- 8) علي بركات، العوامل الاجتماعية للعنف المدرسي (دراسة ميدانية في مدينة دمشق)، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، 2011.
- 9) ليليا الجويني، الرجولة المستفزة في الكتابات النسائية، دار سحر للنشر، تونس، 2016.
- 10) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط9، 2015.
- 11) مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.
- 12) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، 2002، المجلد 1.
- 13) مصطفى الغرافي، المرأة ونظام الثقافة: هيمنة الذكورة مجلة ذوات، المغرب، العدد 15 أكتوبر 2015.
- 14) ناهد بوخالفة، سيران وجه رجل متفائل، منشورات بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018.
- 15) نوال السعداوي، مذكرات طبية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1985.
- 16) هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب - قراءة سيكيوتقافية، دار رؤية للنشر والتوزيع بالقاهرة، مصر، 2015.

المقالات:

- 17) إلهام البوزيدي، الأنثى/المرأة بين أسر اللغة والثقافة، مجلة ذوات، العدد 9، 2015.